الدكتور/ حاتم صيد
hatem.sid@univ-msila.dz

...

المحاضرة الخامسة عشر (15): محاضرة ختامية

...

خاتمة

إن التحصيل الدراسي من أكثر المفاهيم تداولا ليس فقط في الدراسة، وإنما في كل الأوساط الإنتاجية والمعرفية ....ولكن من أهم الأوساط العلمية والعملية الأكثر استخداما له وسط التربية والتعليم، لأن له جانبا هاما باعتباره الطريق الإجباري لاختيار نوع الدراسة والمهنة، وبالتالي تحديد الدور الاجتماعي الذي سيقوم به الفرد، والمكانة الاجتماعية التي سيحققها، ونظرته لذاته، وشعوره بالنجاح ومستوى طموحه.

ولقد وجهت نقدا لعنونة المقياس الموسوم بـ "سوسيولوجيا الإخفاق المدرسي" لأنه عنوانا جزئيا، حيث التحصيل الدراسي أعم من الإخفاق الدراسي، وارتأيت أن يكون معنونا بـ "سوسيولوجيا التحصيل الدراسي". إذ يختلف التحصيل الدراسي من تلميذ لأخر، حسب اختلاف قدراتهم العقلية والإدراكية ،وميولاتهم النفسية والاجتماعية......، ومن ثم فإننا نميز غالبا بين نوعين من التحصيل الد راسي لدى التلاميذ و الطلبة حسب استجابتهم لموادهم الدراسية. فظاهرة التعليم تفرز قطبين متعاكسين في التحصيل الدراسي، قطب النجاح و التفوق، وقطب الإخفاق والفشل الدراسي.

و نستطيع القول أن الإخفاق الدراسي هو حالة تأخر للطالب أو تخلف أو نقص أو عدم اكتمال النمو التحصيلي نتيجة لعوامل متعددة، بعضها يعود إلى التلميذ نفسه بظروفه الجسمية أو العقلية أو الانفعالية والنفسية، والبعض الآخر يرجع إلى البيئة الأسرية والاجتماعية والمدرسية والاقتصادية ... بحيث تنخفض نسبة التحصيل دون المستوى العادي المتوسط بالمقارنة مع نظرائه في السن الدراسي.

ونستطيع أن نرتب مستويات ومظاهر الإخفاق الدراسي بشكل تصاعدي على النحو التالي:

1- التعثر الدراسي.

2- الرسوب الجزئي .

3- الرسوب الكلي وهو تكرار الصف أو ما يعرف بالتخلف الدراسي أو التأخر الدراسي.

4- الفشل الدراسي.

الدكتور/ حاتم صيد

5- وتكرار الرسوب الكلي يؤدي إلى الفصل أو الطرد و في بعض الأحيان إلى التسرب الدراسي.

و تعددت معايير تصنيف أنماط الاخفاق المدرسي وأشكاله، و كذلك مظاهره التي يعتبرها كثيرا من الباحثين مفاهيم مقاربة، و اقتصرنا على معايير التصنيف الأكثر اقترابا وارتباطا وصدقا في عكس حيثيات واقع الاخفاق المدرسي. فأنماط الاخفاق المدرسي حسب معيار عام لكل المواد أو بعضها فهي إخفاق دراسي عام (كلي)، إخفاق دراسي خاص جزئي. أما حسب معيار أصل التأخر فهناك إخفاق دراسي وظيفي(لا عضوي) و إخفاق دراسي غير وظيفي (عضوي). أما إذا جئنا إلى معيار المدة فهناك إخفاق دراسي مستمر (مزمن) و إخفاق دراسي مؤقت (عرضي). كما هناك من يصنفه حسب معيار حجم انتشاره بين إخفاق دراسي فردي و إخفاق دراسي جماعي.

وتتعدد العوامل المؤدية للإخفاق الدراسي وتتداخل فيما بينها، حيث لا يمكن الجزم في كثير من حالات الإخفاق بوجود عامل وحيد يمكن تقبله، والإقرار بأنه هو المتسبب الوحيد في حدوث حالات الإخفاق الدراسي دون ارتباطه بمجموعة العوامل الأخرى، فعند تشخيص حالات الإخفاق الدراسي؛ يجب أن يكون وفق معايير التحصيل المعرفي والمعايير الانفعالية والعاطفية وكذلك العقلية.

كذلك الإخفاق الدراسي تتحكم فيه مجموعة من العوامل، منها ما هو مرتبط بالتلميذ نفسه، ومنها ما هو مرتبط بالمدرسة، جماعة الرفاق، العائلة، ومنها الاجتماعية والاقتصادية.... وكلها عوامل مترابطة ومتشابكة فيما بينها ومتفاعلة فيما بينها، بحيث يصعب تحديد أحد هذه العوامل وجعله السبب الرئيسي والحاسم في إحداث هذه الظاهرة، وتختلف هذه العوامل من تلميذ لآخر ومن صف دراسي لآخر ومن مدرسة لأخرى.

و قد حاول الكثير من الباحثين ضبط الأسباب المؤثرة على النجاح الدراسي و الإخفاق المدرسي كل حسب تصنيفه الخاص، ومن خلال تفحص هذه الأسباب نخلص إلى وجود اتجاهين في تفسير ظاهرة النجاح الدراسي و الإخفاق المدرسي:

الاتجاه الذاتي: و هو توجه يحاول أن يربط بين النجاح الدراسي والإخفاق المدرسي بمستوى ذكاء التلميذ والقدرات العقلية الخاصة التي يملكها كالذاكرة والتخيل والنقد والجسمية والصحية، وكذا النفسية الوجدانية الانفعالية وكذلك الروحية.

أما الاتجاه الموضوعي: فهو يعطي أهمية كبيرة للجانب الأسري، وخصوصا الوضع الاقتصادي والاجتماعي والخلفية الثقافية للوالدين، كما يحاول تفسير ظاهرة الإخفاق أو النجاح على ضوء هذه العوامل، ويرى أن تغييرها كفيل

الدكتور/ حاتم صيد
hatem.sid@univ-msila.dz

بتحسين المردود الدراسي. و يركز هذا الاتجاه كذلك على البعد المدرسي وما يشمله من عناصر مهمة كالمناهج التعليمية وخصائص المعلم و طرق التدريس السائدة وأساليب التقويم المعتمدة في الامتحانات بالإضافة إلى المناخ المدرسي العام.

ولضبط هذه الأسباب تناولناها من منظور شامل يجمع بين الأبعاد النفسية والعقلية والجسمية الصحية والروحية للتلميذ من جهة، والأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للأسرة من جهة ثانية، والأبعاد المدرسية/ التربوية من جهة ثالثة... .

بشكل عام فإن مختلف التصنيفات التي تدرس أسباب الإخفاق الدراسي، والتي من المفروض أن يطلع عليها المدرسون؛ عادة ما تصنفها إلى ثلاثة مجموعات أساسية مع احتمالية أن يكون عددها أكثر.

1- الأسباب الذاتية التي ترتبط بالتلميذ: وهي الأسباب المحايثة لبنيته الجسمية والنفسية الانفعالية و العقلية و الروحية.

2- الأسباب الخارجية التي تعود لبيئة التلميذ: القريبة والتي تؤثر في أداء التلميذ من الخارج وتشكل محيطه الاجتماعي والثقافي خاصة الأسرة وجماعة الرفاق.

3- و الأسباب الخارجية التي تعود للمدرسة والنظام التعليمي والتي تشكل محيطه التربوي.

أما فيما يتعلق بالمقاربات السوسيولوجية المفسرة للظاهرة؛ فلقد ظلّ الجدل القائم بينها حول المدرسة و الإخفاق المدرسي يتراوح بين خطّي المحافظة والتجديد في ما يتّصل بصلتها بالمجتمع. وينطوي كلّ قطب جدلي على تباين اتجاه التأثير بين المدرسة والمجتمع. كما بقي الجدال قائما فيما يخص وظيفة المدرسة وعلاقتها بالأسرة من جهة، وعلاقتها بالمجتمع والنظام الاجتماعي والسياسي من جهة أخرى.

وتختلف التيارات الفكرية النظرية المحافظة والتقدمية في تفسير وتحليل هذه الظاهرة. فالمدرسة و ظاهرة الإخفاق المدرسي تعرضت إلى تحول في تحليلاتها وفي نماذجها النظرية بتعدد الآراء ووجهات النظر حول القضايا والمشكلات التربوية، فتبنى بعض الباحثين ومنهم دوركايم، Durkheim – توازني محافظ - ، بارسونز parsons – توازني محافظ - ، بورديو Bourdieu - صراعي-، التحليلات الماكروسوسيولوجية التي تحاول تفسير ما يجري داخل النظام التعليمي بوظيفته الإجمالية، وتجعل من المجتمع ونظمه العامة نقطة انطلاق متسمة بالنظرة الشمولية للمدرسة. بينما تبنى باحثون آخرون مثل: بودون Boudon ، بيكر Becker، يونج young،.....تحليلات مرتبطة بسلوك الفاعلين، ومركّزة على عدد من القضايا والعمليات التي تجري داخل المؤسسة التعليمية سواء كانت مدرسة أو فصلا .

فمقاربة **الاتجاه الوظيفي التوازني** حول الاخفاق الدراسي تقوم على فكرة الفوارق الوراثية، بمعنى أن المدرسة توحد جميع المتمدرسين في تمثل المعايير الأخلاقية والاجتماعية بغية التأقلم مع المجتمع. وفي الوقت نفسه، تفرق المدرسة بين هؤلاء تقويما وانتقاء واصطفاء. فمن يمتلك القدرات الوراثية والملكات الفطرية كالذكاء والنجابة، والقدرات التعلمية الكفائية؛- ينال النجاح المدرسي - وينتقى لتولية المناصب المتباري عليها، ولكن ليس اتكاءً على المحسوبية والأصل والنسب، بل اعتمادا على المعايير العلمية الموضوعية، والإنجازات التقويمية المضبوطة. في حين من لا يمتلك القدرات الوراثية والملكات الفطرية كالذكاء والنجابة، والقدرات التعلمية الكفائية؛ سيكون من نصيبه الفشل المدرسي.

وإذا جئنا إلى مقاربة الاتجاه الصراعي يذهب المفكر الفرنسي "جورج سنيدر Snyders George" إلى أن "اللامساواة الاجتماعية تشكل مصدرا لمختلف أشكال اللامساواة التربوية والمدرسية"، وهو ينطلق في مقولته هذه من الأطروحة الماركسية المعروفة، التي ترى "أن المدرسة في مجتمع طبقي لن تكون ولا يمكن لها أن تكون إلاّ مدرسة طبقية".

ويرى أصحاب هذا الاتجاه، أن الاختلاف في التحصيل الدراسي والنجاح والرسوب ما هو إلا نتاج يعكس واقع وظيفة المدرسة في المجتمع الرأسمالي، ويرفض أصحاب هذا الاتجاه أن يكون إخفاق طلاب الطبقات الفقيرة في التحصيل الدراسي هو نتيجة تخلف عقلي ذهني أو ثقافي، ويرون بأن المدارس تعامل التلاميذ حسب طبقاتهم الاجتماعية، وأن عدم المساواة بين الجماعات الاجتماعية، أدت إلى اختلاف نوعية المدارس - قطاع تربوي خاص و عام و مواصفات كل منهما من حيث الفعالية و الكفاءة - ، ويرى هؤلاء بأن المدرسة تقوم بتعزيز عدم المساواة بين التلاميذ عن طريق فتح قنوات لأبناء الطبقة الفقيرة للرسوب، ثم للدخول في الفصول تؤهلهم للتدريب المهني، في الوقت الذي يتم فيه تشجيع أبناء الطبقات الغنية للنجاح، ثم لمواصلة دراساتهم الجامعية والعليا بوضعهم في فصول خاصة، وإعطائهم مناهج تعدهم لذلك، و تفسح المجال للحراك الاجتماعي الصاعد.

ونخلص للقول أن معاناة الأطفال من الصراع بين القيم الأسرية - الطبقية والقيم المدرسية راجع لوجود عدم استمرارية بينهما، حيث أن انسجام القيم الأسرية - الطبقية مع قيم المدرسة؛ يؤدي إلى نتائج ممتازة على مستوى التحصيل والاكتساب والتوافق، أما التباين بينهما فيؤدي إلى نتائج سلبية كالفشل أو الإخفاق الدراسي وعدم التوافق، وهذا الأخير يؤدي إلى ظهور "**عدم التو افق المعرفي**".

والمدرسة عند هذا التيار بمثابة آلة تقوم بإنتاج نفس الطبقات و الفئات الاجتماعية، وذلك بواسطة الانتقاء. إذ أن المنظومة التعليمية هي التي تؤدي إلى أن تعيد الطبقات الاجتماعية إنتاج نفسها .فالمدرسة تلعب وظيفة إيديولوجية لأنها رأسمالية، تخدم وظيفة التقسيم الطبقي لضمان إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية السائدة.

ومن خلال هذه الدراسة يظهر لنا مركزية موضوع النجاح الدراسي و الإخفاق المدرسي في تفكير علماء النفس والاجتماع، كما يبرز دور العوامل المتعلقة بالخلفية الاجتماعية الأسرية والاقتصادية بما فيها القيم السائدة في الأسرة والتي يتبناها التلميذ. من جهة أخرى فإن التمثلات الاجتماعية للنجاح لا تقل أهمية عن الإخفاق المدرسي، فهي تمثل قطبا دافعيا قويا لتحفيز نشاط الأداء الجيد للتلميذ. كما تلعب متغيرات وسيطية أخرى كالقيم واتجاهات الأولياء نحو الدراسة والمدرسة، وصورة المعلم والتعليم في الثقافة و المخيال الشعبي دورا محوريا في تعزيز النجاح الدراسي أو الإخفاق المدرسي .

وخلاصة القول أن الأصل الاجتماعي باختلاف مقوماته الثقافية والاقتصادية والاجتماعية؛ تؤثر بشكل كبير في تمدرس الأبناء التلاميذ، وكذا تساهم بشكل كبير في تفعيل ظاهرة الإخفاق المدرسي، هذه الأخيرة التي باتت تؤرق الأسرة بدرجة أولى، وكذا العاملين في الحقل التربوي بدرجة ثانية، لا سيما إذا تعلق الأمر بالخلفية الاجتماعية أو الأصل الاجتماعي للأسرة، والذي ينبني على ثلاثة أبعاد، أولها الرأسمال الثقافي والرأسمال اللغوي المتمثل في مجموع المكتسبات المعرفية والخبرات العلمية، والرأسمال الاقتصادي المتمثل في جميع المستلزمات والأدوات التي من شانها تحسين المستوى المعرفي للتلميذ، وكذا الرأسمال الاجتماعي المتمثل أيضا في شبكة العلاقات التي تكون داخل وخارج الأسرة حتى المحيط الخارجي لها، وتفاعلها فيما بينها كل هذه المقومات الثلاث-الرأسمال الثقافي-الاقتصادي والاجتماعي-مجتمعة مع بعضها تشكل أصلا اجتماعيا أسريا من شانه أن يرفع مستوى التلاميذ ويقلل من إخفاقه الدراسي.

♦♦♦